العرب
الإثنين 2020/01/13
السنة 42 العدد 11585

«باكوراو» قرية نائية تجابه مستقبلا غامضا

فيلم خيال علمي عن غربة المكان واغتراب البشر وسط تفشي الجريمة

يحتل المكان في سينما الخيال العلمي وأفلام الغموض والفانتازيا أهميته الخاصة في رسم مسار الأحداث، كونه ميدانا لتحوّلات شتى ترتبط بالشخصيات وبتطور الدراما. وهو شاهد أيضا على تلك التحوّلات وقابل للتغيير والتأثر بحسب ما تمر به الشخصيات.

طاهر علوان
كاتب عراقي مقيم في لندن

المكانان الواقعي والافتراضي يتكاملان في سينما الخيال العلمي، فكل منهما يعبر عن ثيمة وموضوع محدد، لاسيما وأن هذه النوعية من الأفلام تجد في المكان مكملا تعبيريا للغموض، إذ غالبا ما يتم طمس المكان أو بناؤه بما يوحي باللاواقعية استكمالا لفكرة الخيال التي لا حدود لها.

وفي هذا الفيلم للمخرجين البرازيليين كليبير فيلهو وجوليانو دورنيليز، هناك الكثير ممّا أوردناه آنفا في ما يتعلق بتوظيف المكان في فيلم الغموض والفانتازيا وصولا إلى سينما الخيال العلمي.

> احتشاد القرية يقدّم صورة مجتمع منقسم وغرائبي من جهة، وتعصف فيه طباع المافيات الإجرامية من جهة أخرى

المكان الذي سوف ننطلق منه هو المكان الواقعي، وهو القرية التي يحمل الفيلم اسمها عنوانا له "باكوراو"، ومع المشاهد الأولى سوف نكتشف ذلك المكان/ القرية من خلال عودة تيريزا (الممثلة باربارا كولن) إلى قريتها بواسطة شاحنة صهريج مياه.

ومنذ الوهلة الأولى سندرك حاجة ذلك المكان إلى المياه، كما أن الناس تحتشد من أجل جدة تيريزا التي تلفظ أنفاسها الأخيرة. احتشاد القرية ما يلبث أن يقدّم صورة مجتمع منقسم وغرائبي من جهة وتعصف به طباع المافيات الإجرامية من جهة أخرى.

إنه مجتمع يحاول التمسك بخواصه إلى حد كبير مع تصاعد موجات الغريب المحيطة به من كل جانب. وكأنه مجتمع افتراضي مفتوح على بعضه، حتى تفتقد فيه الخصوصية التي ترتبط بالشخصيات، إذ أن الكل يجتمع بالكل ويقبل إهانة بعضهم البعض كمثل الهجوم الشرس الذي تشنه الطبيبة الثملة على الدوام وشبه المجنونة دويمنيغاس (الممثلة سونيا براغا) على جدة تيريزا وهي تحتضر، على اعتبارها مصدر الشر.

هنا في تلك المساحة الأرضية شبه المعزولة سوف يبحث السياسيون عن مآربهم، فتأتيهم الدعوات لانتخاب العمدة وسيارات تحمل لوحات إعلانية ضخمة، ثم تختفي ليعد السياسي المُترّشح أنه سوف يعيد الأمل إلى تلك القرية النائية. إنها مقاومة الأرض والمكان والشخصية لعمليات التغريب ومحاولات العزل القاسية التي تسعى إليها العديد من الجهات لغرض أن يتغير كل شي ولو بالقوة.

لكننا وفي إطار تطلعنا إلى ما سوف تؤول إليه الأمور في تلك البقعة المنسية لا بد أن نرى شكل المستقبل، وهو ما تذهب إليه المعالجة الفيلمية عندما نشاهد أطباقا طائرة خاصة بالرصد والتصوير تلاحق الشخصيات وهي تتنقل في أركان القرية. وخلال ذلك تبرز الجريمة في هذه الدراما الغرائبية، فحتى الأطباق الطائرة لا ترصد في الغالب سوى عمليات الاغتيال المتفشية في القرية.

هناك ثلة من السياح الذين توصي السلطات أن تتم مساعدتهم للقيام بجولات سياحية في القرية واكتشافها، بمن فيهم أحد القضاة وزوجته، وهما يخفيان هويتهما حتى يتم قتلهما في مبارزة دموية. وبسبب كل هذه التحوّلات في واقع القرية ومستقبلها يتفشّى العنف بشكل غريب حتى تتحوّل الدماء المسفوكة إلى جزء أساسي من الحياة اليومية.

وعلى الرغم ممّا حظي به الفيلم من حفاوة واهتمام نقدي في العديد من الصحف والمجلات المهمة، فضلا عن تكريمه في دورة مهرجان كان السينمائي الأخير، إلاّ أن فيه ثغرات عديدة سواء على صعيد الحبكة أو على صعيد البناء الدرامي.

حفل الفيلم بتفكّك في الأحداث وتكرار وعنف مفرط ومشاهد دماء مبتذلة بلا مبرّر لوجودها أحيانا، علاوة على ذلك الوجود الهزيل للعديد من الشخصيات ولشخصية المرأة، خاصة تيريزا، التي كنا نتوقع منها أن تلعب دورا أكبر في الأحداث، لكن السيناريو أخلّ بذلك.

وما دمنا نخوض في سلسلة الأحداث والتحوّلات الدرامية المفضية إلى العنف، فلا بد أن نتساءل عن جدوى العنف وأسبابه ونتائجه، وهي أسئلة لن تجد لها جوابا مباشرا سوى أنه نوع من التحوّل الدرامي في النسق الاجتماعي في مواجهة التغيير.

كان التغيير الدرامي في هذا الفيلم مرتبطا في الغالب بقوى خارجية، فتارة رغبة السلطات وأصحاب المصالح في الاستثمار في المكان وتغييره، وطورا آخر الأطماع الجانبية التي تريد أن تتحوّل القرية وسكانها إلى حالة أخرى مختلفة، ومن هناك يقاوم أهل القرية بشراسة كل تلك المحاولات المستميتة للتغيير.

تداخل الشخصيات هي طريقة أخرى عمد إليها المخرجان لمنح الفيلم المزيد من الغموض، حتى أنك من الصعب أن تفرز ما بينها، فالقاتل ميشيل (الممثل أودو كير)، مثلا، يقتل بدم بارد كل من يقف إلى جانبه، لكنه ينكر أنه هو الفاعل فيما يمضي الفتك بالجميع.

وتتصاعد دائرة العنف مع المشاهد الأخيرة من الفيلم ومع انتشار الطائرات أو الأطباق المسيّرة التي لا نعرف بالضبط من يستخدمها للتلصّص على سكان القرية، حتى نصدم بمشاهد قاسية من قبيل قطع الرؤوس وصفّها في ساحة القرية.

ربما كان من الرسائل التي أراد فريق الفيلم أن يوصلها هي أن مقاومة ما هو خارجي ممّن يريدون تغيير تلك القرية النائية والمضاربة بها، سوف يفتح أبواب العنف والدم على مصراعيها.

مجتمع مأزوم مفتوح على بعضه

وجدي معوّض يكشف الوجه الآخر للشهرة

"موت فنان شعبي في مقتبَل العمر" هي مسرحية جديدة ألفها المغني المشهور أرتر هاش، بالاشتراك مع المخرج وجدي معوّض، الذي يدير أيضا مسرح الهضبة بباريس حيث تعرض المسرحية.

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

"موت فنان شعبي في مقتبَل العمر" هي ثمرة لقاء بين فنانَين من نفس الجيل، هما المؤلف والمخرج المسرحي الكندي من أصول لبنانية وجدي معوّض، وأرتر هاش (الحرف الأول من هيجيلان) وهو مؤلف أغان وملحن ومغنّ، يجمع في ألحانه بين موسيقى الجاز والروك والإلكترو، اتفقا على صياغة نص مسرحي حول فنان شعبي يدعى أليس بدأ ينأى شيئا فشيئا عن المثل الأعلى للبانك (وهي حركة احتجاج تجمع شبانا يرفعون علامات مستفزة كأنماط الحلاقة والزينة والأشناف، والعبارة هي الأحرف الأولى لـPeople Under No King) التي ينتمي إليها.

ولما بلغ الخمسين، أحسّ بفراغ قاتل وندم شديد، رغم الشهرة والنجاح، وصار ينقم على المنظومة التي تستغل الفن والفنانين وأنصارهم، وينقم أيضا على تضييعه معالم الطريق، التي سار عليها حتى غدا فنانا ذائع الصيت.

وفي يوم يقرّر أليس أن يوهم عشاق فنه بموته، عسى أن يوقظ أنصاره من سباتهم، ويوقظ نفسه من رتابة تقوده إلى القلق الوجودي والكآبة والخواء، فرتّب ذلك بطريقة أراد من خلالها الثأر لنفسه من المنظومة، والتمتع في الوقت ذاته بتبعات تلك الخدعة.

عندما يرفع الستار يجد المتفرجون أنفسهم في الناحية الأخرى من حفلة موسيقية، أي من مكان يطل على فضاء من تلك الأفضية الشاسعة التي يزدحم فيها عشاق الفنان. وثمة ستار معتم يفصل هذا المكان عن الكواليس الموجودة في الواجهة.

عندما يتحوّل الفن إلى سلعة يموت الفنان

وهي حيلة سينوغرافية للدلالة على أن الأحداث تجري على خشبة لم ترفع بعد ستارتها، ولا يجيء من ورائها غير هتاف الجمهور وتصفيقه، وأن الموضوع هنا يخصّ أهل الصناعة، وكيف يستعدّون للقاء جمهورهم، هذا الجمهور الذي يمكن اعتباره هنا سرابا يولّد بدوره سرابا، لأن الشهرة تشبه إلى حدّ بعيد نابذة تدور حول نفسها فتخلق الفراغ من حولها.

هي حكاية في شكل كوميديا موسيقية عن مسير فنان شعبي نحو توبته، ولكن عوض تتبع بطل شاب يكد ويجد ويواجه صعوبات شتى حتى يحقّق حلمه كما جرت العادة في الجنس الموسيقي، اختار وجدي معوّض مسارا عكسيا، حيث بدأ من لحظة السقوط من القمة، ليواكب عبور بطله فترة جدباء من حياته، اكتشف خلالها أنه فقد رأسماله الأخلاقي، فما عاد مخلصا ولا نزيها ولا أمينا، وصار صدره يضيق بمن يلقاه إثر كل حفلة، ما دفع الملحقة الصحافية إلى تجنيبه مقابلة أي كان، ولكن صادف أن انشغلت بأمر آخر، فلم تمنع لقاءه بصحافي أراد أن يحاوره للمرة الأخيرة قبل أن يحال على التقاعد، فكان ما كان، وجاءت مقالة الصحافي مخيبة لانتظارات البطل.

من هنا تولّدت فكرة تظاهره بالموت، وإشاعة ذلك بين الناس، ليستغل المنظومة التي سوف تطلق أدواتها لنشر النعي والتعاليق والريبورتاج واللقاءات، ويندّد بها في الوقت ذاته.

يرسم الجزء الأول من المسرحية صورة قاتمة لعالم الفرجة في شكل كوميدي وكاريكاتيري، كشخصية الملحقة الصحافية ذات النظارة الطبية السميكة في خفتها ونشاطها المسعور، أو الصحافي الذي انتقم على طريقته كتعبير عن خيبته من فنان لم يعد يقبل الخضوع لقواعد اللعبة، واختار أن يجيبه إجابات لا ترضيه، إجابات مقتضبة يراد منها التخلص من إجراء الحوار، والاكتفاء بالقول: "أؤلف أغانيَ، ذلك ما يمكن أن أقدّمه، ليس لديّ ما أقول عن المجتمع..".

يلي ذلك قدوم مدير أعمال الفنان، الذي سيتحوّل معه العرض إلى أضحوكة، بحكاية الموت الكاذب والدفن المصطنع والطقس الفودو المتكلف كي يعيده إلى الحياة بعد ممات، ويشفيه ممّا "أصابه من عمى".. فهو صاحب فكرة الغياب ثم الانبعاث.

ولكن من المفارقة أن الأقارب والمعجبين لم يستسيغوا فكرة انبعاث "الميت"، فداروا له الظهر، وكادوا يتجاهلونه لولا قدوم إحدى المعجبات من كيبيك، لتأخذ بيده، وتقوده في تيهه، وتعيد إليه أصحابه وأحبابه، فيُبعث الفنان بفضلها من جديد.

> مسرحية «موت فنان شعبي في مقتبَل العمر» حكاية في شكل كوميديا موسيقية عن مسيرة فنان شعبي نحو توبته

لئن وفّق الممثلون والممثلات في أداء أدوارهم على الوجه الأكمل، وخاصة ماري جوزي باستيان في دور المعجبة بلهجتها الكيبيكية الطريفة، فإن أرتر هاش سجل حضورا لافتا، بفضل أدائه الركحي لا محالة، وبفضل أدائه الغني أيضا، وهذا ليس غريبا من فنان توّج ثلاث مرّات في مناسبات انتصار الموسيقى، كعازف بيانو ومغنّ بيعت أسطواناته بمئات الألوف.

أما عن اختياره اسما مؤنثا في هذه المسرحية، فكان وفاء منه لروح أمه التي كانت تعشق الممثلة الراحلة أليس سابريتش، لوقوفها مع الشعب الأرمني، الذي ينتمي إليه أرتر هيجلان، ابن المغني جاك هيجلان.

هي مسرحية تعالج مكانة الفنان في مجتمعه، في ظل التطورات المعاصرة التي جعلت الفن أشبه بسلعة، وكيف يمكن أن يحافظ عليها أمام النجاح ومتطلبات السوق وتنازلات أخرى تخالف ما عاهد نفسه عليه في بداياته، أحببنا فيها جمعها بين الهزل والجرأة والموسيقى، رغم ما شابها من تمطيط في جزئها الثاني.

الرواد المنسيون

فاروق يوسف
كاتب عراقي

كان هناك وعد دائم بتأليف موسوعة يكون الفن التشكيلي في العالم العربي موضوعها. هناك مؤسسة فنية واحدة وضعت ذلك الوعد قيد التنفيذ.

لقد سعدت شخصيا بتلك الخطوة بالرغم من أنني لاحظت أن معظم العاملين في ذلك المشروع لم يكونوا عربا أو أن معرفتهم بموضوعه كانت متواضعة. تلك مشكلة أعتقدت المؤسسة المعنية بالأمر أن في إمكانها أن تحلها عن طريق المال. غير أن الطريق كانت شائكة ومعقدة ومليئة بالدسائس.

ما صار جليا بالنسبة لي أن تلك الموسوعة لن تصدر إلاّ بعد ثلاثين سنة أو أكثر من ذلك. لقد كان العمل يتم ببطء شديد. وكما يبدو فإن غياب المُساءلة كان عاملا مساعدا في الاحتيال على المشروع من خلال سرقة الوقت. بحيث صارت الرواتب تُدفع من غير مقابل. لم يكن هناك مَن يعمل. تعطلت الموسوعة تلقائيا. تلك الموسوعة هي اليوم حاضرة وغائبة في الوقت نفسه.

كان خطأ تلك المؤسسة فادحا حين تعاملت مع المشروع بشيء من سوء الفهم المتراكم حين اعتقدت أن كتابا أجانب يمكنهم أن يكونوا محايدين أكثر من الكتاب العرب في النظر إلى التاريخ الفني العربي من غير أن تدرك أن جهل أولئك الكتاب بالموضوع سيكون عائقا جوهريا يحول دون إنجازه. وهو ما حدث فعلا. لقد ضاع الوقت وأهدر مال، كان في إمكانه أن يغطي تكاليف أكثر من موسوعة.

اليوم علينا أن نفكر بطريقة مختلفة. من وجهة نظري كانت التجربة الفنية العربية غنية بالأساليب والأفكار والرؤى والأحلام والوقائع ذات المغزى، لذلك فمن الضروري التعرّف على تفاصيلها. يجب أن نكتب عن تلك التفاصيل مهما كانت صغيرة.

هناك بشر وهبوا حياتهم من أجل أن يكون الجمال ممكنا، بعد أن فتحوا أعينهم على صحراء، وجدوا أن من واجبهم أن يؤثثوها بأشياء هي من صنع خيالهم. جزء كبير من حياتنا الجمالية هو من صنع الفنانين. التفكير في عمل موسوعي عن الفن في العالم العربي ضرورة.

الجمال صنيعة خيال الفنان (لوحة للفنان محمد الوهيبي)